حقيقة الكفر: الاغترار بالنعمة، وازدراء المنعم

إذ لا ينفك الكفر عن أحد صورتين : إما أن يكون قائم على توهم وجود المصلحة عند غير صاحبها ، فيتعلق القلب بغير الله أو أن ينطوي عن تعريف الله بغير صفاته وأسمائه الحسنى ، ووصف أفعاله بما لا يليق ، بل وازدرائه بأن ينسب له النقص .

قال تعالى (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)

ما كفر الكفار إلا طمعًا في المال والولد، وطلبًا للعزة والجاه والسلطان. ولم يتوقف كفرهم عند هذا الحد، بل بلغ بهم الوهم أن ظنوا أن كفرهم سيحقق لهم كل ما يتمنون، وأن الإيمان بالله سيحرمهم من متاع الدنيا. لذلك، بينت الآيات الكريمة أن الكفر يقترن بالجشع في الدنيا، وكثرة الأماني، وطول الأمل، وسوء الظن بالله، والبحث عن العزة عند غيره. وتكون النتيجة الحتمية لهذا الكفر هي ولاية الشيطان وهضم حقوق الناس.

ومن هنا، تسخر الآيات من الكافر وطمعه وسوء ظنه، وتتوعده بالعذاب بسبب هذا الجشع، وبانقلاب الأسباب التي اعتمد عليها لتصبح وبالًا عليه؛ فيتحول إلى عبدٍ للشيطان بدلًا من العبودية الله، ويغدو كالدمية التي يحركها الشيطان بخيوطه، فما أعظم خزيه في الدنيا والآخرة!

وأمام ظلم هؤلاء الكفار لأهل الإيمان، يتمنى النبي ﷺ –بفطرته البشرية– أن يعاجلهم الله بالعقوبة انتصارًا للمستضعفين من المؤمنين. غير أن الله سبحانه يطمئنه ويهدئ من روعه، ويبشره وأصحابه بأنهم في وفده وضيافته ورعايته. ثم تعود الآيات لتخاطب المجرمين متوعدةً إياهم بنار جهنم؛ فقد أعد الله للمتقين كرامةً ونُزُلًا، وللمجرمين جهنم مثوى. وبينما خسر الكافرون نصيبهم من الشفاعة في الآخرة لأنهم أفسدوها بانغماسهم في الدنيا، نالها المؤمنون بعهدٍ من الله جزاء إحسانهم في عبادته وتضحيتهم بدنياهم في سبيله. أما الكافرون فقد حُرموا منها؛ لأنهم افتروا على الله الكذب، واستعزوا بغيره سبحانه، في حين أن الكون كله قد خضع لعزته، فالجميع يدين له بالعبودية، وسيأتونه يوم القيامة فرادى متجردين من كل شيء.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: 77]. وقد ورد في سبب نزولها ما رواه البخاري ومسلم عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُ قَيْنًا –أي حدادًا– فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي دَيْنٌ عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ، فَسَأُوتَى مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ». فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ[1].

هذه المناسبة لنزول الآية تبين وهم الأمان الدنيوي وحقيقة المصير الأخروي ، إذ يصور القرآن نموذجًا نفسيًا متكررًا للإنسان الذي يغتر بنعم الله في الدنيا، فيتخذ من سعة رزقه وكثرة ولده دليلًا على رضى الله عنه، بل وجواز مرور نحو نعيم الآخرة، متناسيًا أن العطاء الدنيوي قد يكون استدراجًا وابتلاءً لا تكريمًا.

فهذا النموذج من الكفار لم يكتفِ بجحود آيات الله الواضحة وطمس دلالتها، بل جمع إلى كفره أكل حقوق الضعفاء والمؤمنين بغير وجه حق، ثم قابل تذكيرهم بالبعث بالسخرية والتهكم، متوهمًا أن حاله في الآخرة سيكون امتدادًا لترفه في الدنيا.

إن الدافع الحقيقي وراء هذا الجحود هو التعلق بالدنيا والاغترار بزخرفها؛ إذ يقيس الكافر موازين الآخرة بمقاييس الدنيا، فيظن أن ما يملكه من مال وولد هو دليل استحقاقه لفضل الله، وأن من أنعم عليه في الدنيا لا يمكن أن يحرمه في الآخرة. وقد كشف الإمام **ابن الجوزي** عن حقيقة هذا التلبيس بقوله (وإنما قالوا هذا لموضع شكهم، وقد لبّس إبليس عليهم في ذلك، فقالوا: إن كان بعث فنحن على خير؛ لأن من أنعم علينا في الدنيا بالمال لا يمنعناه في الآخرة)[2].

وهذه القاعدة الفاسدة ليست حكرًا على العاص بن وائل، بل هي سمة للمغترين في كل زمان، كما حكى القرآن عن صاحب الجنتين: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 35-36]، وكما قال تعالى عن الإنسان الكفور: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ (فصلت: 50).

وقد رد الله تعالى على هذا الظن الفاسد في آيات أخر مبينًا أن المال والولد ليسا مقياسًا للقرب من الله، فقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55-56]، وقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (سبأ: 37). فالعبرة ليست بكثرة العطاء، بل بحسن الاستعمال، وصلاح العمل، وصدق الإيمان.

قوله تعالى ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾(مريم: 78) تضمن ردا يكشف زيف الأمان الذي يتوهمه الكافر لما ادعى لنفسه النعيم في الآخرة جزمًا وتأكيدًا، إذ جاء الرد الإلهي حاسمًا وموبخًا: قال **ابن الجوزي** في بيان معناها (المعنى: أعَلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟)[3].

وقد أضاف الإمام **الطبري** في تفسير قوله (أم اتخذ عند الرحمن عهدًا) أي هل قدّم عملًا صالحًا وإيمانًا بالله ورسوله يوجب له وعد الله بالجنة والنجاة؟ [4]فلا هو اطّلع على اللوح المحفوظ ليرى مصيره، ولا هو يملك ميثاقًا من الله بالإيمان والطاعة يؤهله لتلك المنزلة، فعلام التقول على الله بغير حق .

---

[1]) رواه البخاري ج14 ص 366 رقم 4365
2) تلبيس أبليس ج1 ص 72
[3]) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 1061
[4]) تفسير الطبرى ج18 ص 248

إن شعور الكافر بالأمان في الدنيا استنادًا إلى ماله وجاهه هو أمانٌ متوهَّم وسرابٌ خادع؛ لأن سنن الله اقتضت أن من أمِن مكر الله في الدنيا ولم يخشَ عذابه، انقلب أمانه خوفًا وحسرة يوم القيامة، مصداقًا للحديث القدسي : **(وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ؛ إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** [5] .

وقد أشار الإمام المناوي إلى أثر الخوف من الله في قلب المؤمن ، بأن (من اشتدّت خشيته في دار الفناء، عَظُم أمانه في دار البقاء، والعكس بالعكس؛ ذلك أن من رُزق عين اليقين في دنياه، أبصر ببصيرته أهوال الصراط وشدائده، فتجرّع من الرهبة وكابد من الفزع ما تقصر العبارة عن وصفه؛ فيكفيه الله تلك الأهوال غدًا، ولا يجمع عليه مرارة الخوف مرتين).

ويقول العارفون: (الخوف ضربان: –

خوف عقابٍ، يعتري أهل الظاهر، وهو خوفٌ عارضٌ يزول بزوال سببه.

وخوف جلال؛ يستولي على أهل القلوب، وهو خوفٌ مقيمٌ لا يزول أبدًا)[6]

قوله (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) (79). يأتي قوله :﴿**كَلَّا**﴾ حرفَ ردعٍ وزجرٍ قاطع؛ ليُبطل به دعوى هذا الكافر (العاص بن وائل) ويُكذِّب زعمه الباطل حين قال استهزاءً: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾. لقد تجرّأ هذا الشقي فتألّى على الله بغير علم، وظنّ أن الدنيا تُنال بالادعاء أو تُقاس بموازين الباطل. فجاء الوعيد الإلهي الصارم : ﴿**سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ**﴾؛ أي سنُثبت قوله هذا في صحائفه عبر الحفظة الكرام، ليُجازى به يوم الحساب، مصداقاً لقول النبي رسول الله ﷺ (وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)[7] ، وهنا تتجلى **حقيقة عقائدية كبرى**، وهي كمال علم الله وإحاطته، وأن الكلمات ليست هباءً منثوراً، بل هي أعمالٌ تُحصى وتُكتب، فربّ كلمةٍ أطلقها صاحبها استخفافاً كانت سبباً في هلاكه الأبدي.

وقد تضافرت أئمة التفسير من أهل السنة في بيان المراد بقوله تعالى :﴿**وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**﴾ على معنيين متكاملين:–

- **الزيادة والمضاعفة في الآخرة** :قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي نزيده عذاباً فوق عذابه في الآخرة؛ جزاءً على كفره، وعقوبةً على استهزائه بآيات الله وادعائه الكاذب.
- **الاستدراج والإملاء في الدنيا** :وذكر الطبري وابن كثير وجهاً آخر بديعاً، وهو أن الله يمده بالمال والولد في الدنيا استدراجاً وإملاءً؛ ليزداد بهما طغياناً وإثماً، فيكون هذا العطاء في ظاهره نعمة، وفي باطنه وقوداً يضاعف عذابه في الآخرة.

إن من سنن الله الكونية في المكذبين أن يجعل ما يتبجحون به من زينة الحياة الدنيا سبباً مباشراً لشقائهم؛ فكلما ازداد هذا الكافر مالاً وولداً، ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، وتحرّج صدره بالهموم والفتن، وانشغل بجمعها وحفظها عن الإيمان.

---

[5]) رواه ابن حبان في صحيحه ج2 ص 406 رقم 640 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 173

[6]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 371 فيض القدير ج4 ص 649

[7]) رواه البخاري ج20 ص 119 رقم 5997

ويُجلّي هذا المعنى ويفسّره قوله تعالى ﴿**وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ (التوبة: 85)

فالعطاء هنا ليس إكراماً، بل هو "مدٌّ في العذاب" يتصل فيه شقاء الدنيا بعذاب الآخرة؛ إذ يكدح في الدنيا في تعب جمع المال وتربية الولد، ثم يلقى الله يوم القيامة مفلساً من الشكر، مثقلاً بالتبعات، فيُحاسَب على كل نعمةٍ جحدها، ليُخلَّد في العذاب الأليم.

إذ تُرسّخ هذه الآية في نفس المؤمن **قاعدة تربوية عظيمة** :وهي ألا ينخدع بظواهر العطاء الدنيوي لدى أهل الباطل، ولا يغترّ بكثرة أموالهم وأولادهم؛ فإن العطاء مع المعصية **استدراجٌ لا إكرام**، والمنع مع الطاعة **حمايةٌ لا حرمان** . كما تُربي المسلم على **مراقبة لسانه**، واستشعار **خطورة الكلمة**، وأن يربط كل نعمةٍ ينالها بشكر المنعم سبحانه؛ حتى لا تنقلب النعمة في حقه إلى حُجّةٍ عليه يوم يلقى الله.

قوله (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)(80) يُعد دستورًا عقديًا وتربويًا يهدم أوهام التعلّق بالدنيا، ويعيد ترتيب أولويات القلب البشري. فهي أيةٌ تُسقط أقنعة الاغترار، وتُعيد للنفس بصيرتها أمام حقيقة الفناء.

إذ جاءت ردًّا على من اغترّ بنعمة الدنيا فظنّها دائمةً له في الآخرة، وهو العاص بن وائل حين قال: «لأوتينّ في الآخرة مالًا وولدًا». فجاء الرد الإلهي حاسمًا؛ قال الإمام **ابن جرير الطبري** :أي (ونسلب هذا القائل ماله وولده، فيصير لنا ماله وولده دونه، ويأتينا هو يوم القيامة فردًا، وحده لا مال معه ولا ولد)[8] .وزاد **ابن الجوزي** بيانًا بقوله :أي: (نرث ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيّاه) [9].

وقد أشار **ابن كثير** و**السعدي**[10] إلى بُعدٍ عقديٍ دقيق في قوله: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾؛ وهو أن الله لا يرث العبد فحسب، بل يرث "قوله"[11] ، فيتحفظ الله على كل أمواله وأملاكه التي زعم أنها ملكه بدعواه العريضة، فتذهب كلماته أدراج الرياح، وتبقى عليه تبعتها، وتؤول كل النِعم التي تفاخر بها إلى مالكها الحقيقي ووارث الأرض ومن عليها.

فالعبد في هذه الدنيا بين حالين لا ثالث لهما: إمّا أن يَهلِك ماله وولده في حياته، وإمّا أن يَهلِك هو ويتركهما خلفه؛ وفي كلا الفرضين، فإن الله سبحانه هو الوارث الحق، وما في أيدي الخلق إنما هو **عاريةٌ مستردّة**.

وحين يستقرّ هذا اليقين في قلب المؤمن، تتحوّل نظرته إلى الفقد والمصائب؛ فلا يجزع لفوات نعمةٍ يعلم أن الله أولى بها منه، بل يقابل الابتلاء بالرضا والتسليم. وفي هذا المعنى الجليل، يبشّرنا النبي ﷺ بقوله :(إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ **قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ** فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ **حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ** فَيَقُولُ اللَّهُ ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ)[12]. فمَن أيقن أن الولد والمال ملكٌ لله، لم يزد على أن يقول"**إنا لله وإنا إليه راجعون**"؛ إذ لا يُنازَع المالك في ملكه.

---

[8]) تفسير الطبري ج18 ص 248
[9]) كشف المشكل ج1 ص 1061
[10]) تفسير السعدي ج1 ص 499
[11]) تفسير ابن كثير ج5 ص 261
[12]) رواه الترمذي ج4 ص 154 رقم 942

وفي ختام الآية، يرسم القرآن مشهد النهاية المحتومة :﴿**وَيَأْتِينَا فَرْدًا**﴾؛ قال **قتادة** (فردًا؛ لا مال له ولا ولد ولا عشيرة)، وقال **الحسن البصري**:(خرجتَ من الدنيا كما دخلتَها، لا مال معك ولا ولد). فيوم القيامة، يُبعث الخلق حُفاةً عُراةً غُرلًا، يتجرّد المرء من كل ما شغله عن ربه من جاهٍ أو نسبٍ أو ولد، ولا يبقى له من همٍّ سوى أن ينجو بقلبه، ويفوز برضا ربه.

ولعظم هذا الموقف ورهبته، لم يترك الإسلام العبدَ ليُفاجأ به في الآخرة، بل شرع له تدريبًا يوميًا متكررًا في الدنيا؛ ألا وهو **الصلوات الخمس** .ففي كل صلاة، يقف العبد بين يدي ربه منفردًا بقلبه، منقطعًا عن أهله وماله وشواغل دنياه، وكأنه يقف موقف العرض الأكبر؛ ليتعوّد القلبُ الانعزالَ عن الخلق، والأُنسَ بالخالق، وليتهيأ لتلك اللحظة الحاسمة التي يقف فيها أمام الله فردًا بلا شفيعٍ إلا عمله الصالح.

قوله (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)(81) هذه الآية تؤكد خسران وخيبة أمل المشركين في كل ما تعلقت به آمالهم ، الاعتماد القلبي على غير الله لطلب القوة والحماية ينتهي بالخذلان وخيبة الأمل، لأن كل ما سوى الله ضعيف وزائل.

قال ابن القيم (**أعظم الناس خذلانا من تعلق بغير الله** فإن مافاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرض للزوال والفوات ومثل المتعلق بغير الله : **كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت** ، وبالجملة : فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها : التعلق بغير الله ولصاحبه الذم والخذلان كما قال تعالى (**لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا**) (الإسراء : 22)[13].

ولتوضيح ما تقدم بأسلوب عملي نضرب أربعة أمثلة من الحياة العملية لتوضيح المعنى :-

المثال الأول : التعلق بالمال والنفوذ كضمان مطلق للأمان: فقد يظن شخص أن ثروته أو منصبه القيادي يحميانه من كل أذى أو أزمة، فيُقدّس عمله وماله لدرجة نسيان حق الله أو التقصير في واجباته الدينية. فإذا وقعت أزمة صحية مفاجئة أو خسارة اقتصادية كبرى، يكتشف أن المال والمنصب عاجزان عن ردّ القضاء أو شراء الطمأنينة، فيشعر بالانكسار والخذلان.

المثال الثاني : الاعتماد الكلي على الأشخاص (الواسطة أو العلاقات) : في بيئة العمل أو الحياة الاجتماعية، قد يربط أحدهم مستقبله ورزقه بشخصية ذات نفوذ، فيتملّقها ويجعلها محور رجائه وخوفه، معتقداً أن رضاها هو سبب رزقه الوحيد. ومع أول تغيّر في المناصب أو مصالح ذلك الشخص، يتخلى عنه، ليجد نفسه وحيداً بلا سند، لأن من تعلّق به كان مخلوقاً ضعيفاً متقلباً.

المثال الثالث : البحث عن القيمة والقبول عبر إرضاء الناس (وسائل التواصل الاجتماعي) : يسعى البعض وراء الشهرة وإعجاب الناس ليشعروا بالعزة والقيمة، فيقدّمون تنازلات في مبادئهم وقيمهم لنيل رضا الجمهور. وبمجرد أن

[13]) مدارج السالكين ج1 ص 458

تتغير أهواء الناس أو يقع في خطأ بسيط، ينقلب الجمهور ضده، فيدرك أن رضا الناس غاية لا تُدرك وأن التعلق به خذلان.

المثال الرابع : التعلق المفرط بالأسباب المادية ونسيان مُسبّب الأسباب : مثل المريض الذي يعلّق شفاءه على طبيب مشهور أو دواء معين، وينسى اللجوء إلى الله بالدعاء والتوكل. فالأخذ بالأسباب واجب، لكن "التعلق القلبي" بها دون الله يجعل الإنسان ينهار نفسياً إذا لم ينجح العلاج، بينما المتوكل على الله يأخذ بالأسباب وقلبه مطمئن بقدرة الله.

من هنا يستبين لنا أن المشكلة ليست في امتلاك المال، أو تكوين العلاقات، أو الأخذ بالأسباب؛ بل في تعلّق القلب بها وجعلها مصدر الأمان الحقيقي بدلاً من الله. فالمؤمن يعمل ويجتهد ويأخذ بالأسباب، لكن قلبه يظل معلقاً بالله وحده، لأنه الباقي الذي لا يزول ولا يُخذل من لجأ إليه.

قوله (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) (82) (كلا) حرف زجر وردع ، أي لابد وأن تنقلب عليهم الأسباب التي تعلقت بها قلوبهم ، فلا تنفعهم بل تضرهم ، فمن عبد الجن ازداد رهقا ، ومن عبد الدرهم تعس ، ومن استعان بغير الله ضل وذل ..وهكذا .

وقد تجسّد هذا المعنى في حياة النبي ﷺ ومواقف الصحابة مع قريش، حيث تحوّلت أسباب القوة والزعامة إلى وبالٍ على أصحابها:-

المثال الأول : رؤوس الكفر في غزوة بدر : إذ خرج أبو جهل وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف بجيوشهم وأصنامهم ظنًا منهم أن كثرتهم ومكانتهم وآلهتهم ستمنحهم العز والنصر، فانقلبت كل تلك الأسباب ضدهم، فكان اجتماعهم سببًا في هلاكهم جميعًا في يوم واحد، وبقيت ذكراهم عبرةً وعارًا.

المثال الثاني : الوليد بن المغيرة :آثر زعامته في قريش وأمواله وبنيه على اتباع الحق الذي عرفه، وظن أن ماله وولده سيكونان له سندًا، فأنزل الله فيه آيات تتوعده بأن تتحول تلك النعم التي اغتر بها إلى سبب لزيادة عذابه وفضيحته في الدنيا والآخرة.

المثال الثالث : أبو لهب وزوجته :أنفقا مالهما وجاههما في محاربة الدعوة ظنًا منهما أن ذلك سيحفظ لهما مكانتهما في قريش، فكانت النتيجة أن تحولت أموالهما ومكانتهما إلى وقود لهلاكهما، وخلّد القرآن ذمّهما إلى يوم القيامة.

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83]، تتجلى حقيقة قرآنية مهيبة تكشف عن سر اندفاع الكافرين نحو الغواية، وتضعنا أمام ميزان دقيق في فهم القدر الإلهي وعلاقة العبد بالشيطان.

إذ جاء التعبير القرآني بلفظ (**تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**) ليصوّر حالة نفسية وحركية عجيبة؛ ويوضح الإمام ابن القيم أصل الكلمة بقوله: «"الأزّ" في اللغة: التحريك والتهييج، ومنه يُقال لغليان القِدر: الأزيز؛ لتحرُّك الماء عند الغليان»[14]. وهنا يبلغ التصوير القرآني ذروة البلاغة؛ فكما أن النار تضرم تحت القدر فيشتد غليان الماء وتضطرب أجزاؤه مندفعاً إلى الأعلى بلا مقاومة، فكذلك الشياطين توقد نار الشهوات والشبهات في قلوب الكافرين، فتستفزهم وتهيجهم نحو المعاصي والكفر، فيُقبلون على الشر إقبال المضطر المندفع، لا يملكون لأنفسهم كبحاً ولا رويّة.

وهذا ما قرره حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما حين فسّرها بقوله: «تُغويهم إغواءً»، وقال مجاهد وقتادة: «تُزعجهم إزعاجاً إلى المعاصي»، أي تستحثهم وتدفعهم دفعاً عنيفاً لا فتور فيه.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال حول نسبة إرسال الشياطين إلى الله تعالى، وهنا يضع أهل السنة والجماعة الميزان الدقيق بالتفريق بين **الإرادة الكونية القدرية** و**الإرادة الشرعية الدينية** : **فالمقصود بالإرسال التخلية فيحصل التسليط لا إرسال أمر ومحبة**: فالله سبحانه منزه عن أن يأمر بالفحشاء أو يرضى لعباده الكفر، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [الأعراف: 28]، وقال: ﴿**وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ [الزمر: 7]. وإنما المراد بالإرسال هنا: التخلية بينهم وبين الشياطين، ورفع العصمة واللطف عنهم؛ جزاءً وفاقاً لإعراضهم واختيارهم طريق الضلال، كما قال سبحانه: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: 5]، وقال: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: 36].

ويؤكد هذا المعنى وقوله: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: 27]. أي أن هذه التخلية عقوبة لأنه لم يؤمنوا ابتداءً ، ولذلك جعل الله قدرة الشيطان في ذلك لا تتدعى الاستفزاز والإغواء ، فهو إذنٌ قدريٌّ للشيطان ، كما جاء في قوله تعالى لإبليس: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ**﴾ [الإسراء: 64].

وقد قرّب الرازي هذا المعنى بمثال بليغ، وهو أن الرجل إذا ربط كلباً عقوراً في داره، ثم دخل عليه معتدٍ فتركه صاحب الدار ولم يمنع الكلب من التوثب عليه؛ صحّ في لغة العرب أن يُقال: «أرسل عليه كلبه»، لا لأنه أمره بالهجوم ابتداءً، بل لأنه خَلّى بينهما ورفع المانع.

فتسليط الشياطين على الكافرين «**أزّاً**» ليس جبراً لهم على المعصية يسلبهم الاختيار، بل هو عقوبة إلهية على كفرهم الأول وإصرارهم على الباطل؛ فحين آثروا ولاية الشيطان على ولاية الرحمن، وكّلهم الله إلى من تولّوه، فساقهم الشيطان سوقاً حثيثاً إلى حتفهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ [النحل: 100].

قوله (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) (84) حمل المفسرون لفظ "العدّ" هنا على إحصاء أنفاسهم، وأيامهم، وشهورهم، وسنينهم بدقة متناهية حتى يحين موعد حسابهم؛ فالدنيا مهما طالت فهي قصيرة ومحدودة، (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ)(يونس/45)

[14]) شفاء العليل ج1 ص 62

والخطاب للنبي محمد ﷺ كي لا يضيق صدره بكفرهم، ولا يغتمّ لرؤية منكرهم، ولا يحزن لظلمهم وإيذائهم لأصحابه المؤمنين. فهي دعوةٌ له ﷺ وللمؤمنين من بعده إلى الصبر وعدم استعجال نزول العذاب بهم؛ لأن الله سبحانه يُمهلهم لحكمةٍ بالغة ولا يُهملهم، وما متاعهم وإمهالهم في الدنيا إلا لحظاتٌ زائلة لا تساوي شيئًا أمام ما ينتظرهم في الآخرة ، فليصبر علي ذلك ، فإمهال الله لهم في الدنيا ليس بشيء ، مما أعده لهم في الآخرة من حسابٍ دقيق وعقابٍ شديد لكل أفعالهم.

قوله (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا) (85) "الحشر" إذا ورد في سياق ذكر المؤمنين ، فإنه يكون هنا كناية عن الزفة والاحتفال والاحتفاء بهم ، فعَنْ عَلِيٍّ ؛ فِي هَذِهِ الآيَةِ : (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَن وَفْدًا) ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : هَلْ تَدْرُونَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُحْشَرُونَ ؟ أَمَا وَاللهِ مَا يُحْشَرُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، **وَلَكِنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ بِنُوقٍ لَمْ تَرَ الْخَلاَئِقُ مِثْلَهَا** ، عَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ ، وَأَزِمَّتُهَا الزَّبَرْجَدُ ، فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ يُنْطَلَقُ بِهِمْ حَتَّى يَقْرَعُوا بَابَ الْجَنَّةِ)[15].

قوله (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا) (86) أي حشر المجرمين ، وهو تعبير تصوير يوحي بهيئتهم وهم يساقون كما تساق البهائم ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ :-

- رَاغِبِينَ
- رَاهِبِينَ

وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ

- وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا ، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا)[16] .

قال ابن حجر (قوله "راغبين" يحتمل أن يكون إشارة إلى "الأبرار"
وقوله "راهبين" إشارة إلى "المخلطين" الذين هم بين الخوف والرجاء
و"الذين تحشرهم النار" هم "الكفار"
أما قوله "واثنان على بعير" ... يحتمل أن يكون المراد بالفوج الأول الأبرار ، وبالفوج الثاني الذين خلطوا فيكونون مشاة والأبرار ركبانا ، وقد يكون بعض الكفار أعيا من بعض فأولئك يسحبون على وجوههم ، ومن دونهم يمشون ويسعون مع من شاء الله من الفساق وقت حشرهم إلى الموقف)[17] .

وقد أوضح السيوطي معنى (يُحْشَر النَّاس عَلَى ثَلَاث طَرَائِق) بأن ذلك (إِشَارَة إِلَى الْأَبْرَار وَالْمُخَلِّطِين وَالْكُفَّار) يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف:-

1. **الأبرار**: وهم المشتاقون لما أعدّه الله لهم من الثواب، وهؤلاء يُكرمون ويُركَبون على النجائب (خيار الإبل ومطايا الجنة).

---

[15]) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ج13 ص 119 ومثله رواه أحمد في مسنده ج2 ص 447 رقم 1333 ج3ص269 رقم 1263
[16]) رواه البخاري ج20 ص 184 رقم 6041
[17]) فتح الباري ج11 ص 382

2. **المُخلِّطون**: وهم المؤمنون الذين خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً، وحالهم بين الخوف والرجاء. وقد ورد في الحديث أنهم يُحملون على الإبل.

3. **الفجار والكفار**: وهؤلاء يبعث الله إليهم ملائكة تُسحّر لهم ناراً تحشرهم وتسوقهم إلى المحشر.)[18].

ففي قوله (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا)(87) تأكيد علي عظمة الله وكمال ملكه، أنه لا يجرؤ أحد من الخلق على الشفاعة عنده إلا بإذنه، ولا يأذن سبحانه إلا لمن ارتضاه من المؤمنين.

قال القحطاني (ومن تمام ملكه وعظمته وكبريائه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم، ولا يأذن إلا لمن ارتضى) [19]

ويتلخص معنى "العهد" الذي تُنال به الشفاعة وتتحقق به النجاة يوم القيامة في ثلاثة أمور:-

- **التوحيد الخالص** :قال ابن عباس رضي الله عنهما إن العهد هو شهادة أن لا إله إلا الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وإفراد الله بالرجاء[20].

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ " إنه أتاني من ربي آت **فيخيرني بأن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة** وإني اخترت الشفاعة" فقالوا: يا رسول الله ننشدك بالله والصحبة لما جعلتنا من أهل شفاعتك قال: "فأنتم من **أهل شفاعتي**" قال: فلما ركبوا قال: "فإني أشهد من حضر أن **شفاعتي لمن مات لا يشرك بالله شيئا من أمتي**"[21] وقد اختار النبي ﷺ الشفاعة لأمته على دخول نصفها الجنة.

- **إتمام العبادات** :المقصود بالعهد هو العبادة الصحيحة لله، وأهمها الصلاة؛ فقد قال النبي ﷺ (من جاء **بالصلوات الخمس** قد أكملهن لم ينقص من حقهن شيئًا، **كان له عند الله عهد أن لا يعذبه**، ومن جاء بهن وقد انتقص من حقهن شيئًا، فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه).[22].
- **التوجه بالدعاء المأثور** : إذ حثّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على اتخاذ هذا العهد، مبينًا أن الله ينادي يوم القيامة: «**من كان له عندي عهد فليقم**». وعندما سُئل عن صيغة هذا العهد، علّمهم أن يقولوا:-

(اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، **فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لي عندك عهدًا توفيه إلى يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد**)[23].

---

[18]) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي ج3 ص 315 رقم 2058
وقد نبه السيوطي إلى أن الحديث لم يبيّن طبيعة الإبل التي يركبها "المخلّطون"؛ هل هي من إبل الجنة أم من إبل الدنيا التي تُبعث يوم القيامة؟
والأقرب أن تكون من إبل الدنيا وليست من نجائب الجنة؛ لأن حال هؤلاء المخلّطين غير مستقر بعد، فمنهم من سيغفر الله له ويدخله الجنة مباشرة، ومنهم من سيُعذَّب في النار بقدر ذنوبه ثم يخرج منها إلى الجنة. ولا يليق بكرم الله أن يُكرم عبداً بركوب مطايا الجنة في المحشر ثم يهينه بعد ذلك بإدخاله النار.
[19]) د سعيد بن علي بن وهف القحطاني : نور التوحيد وظلمات الشرك ج1 ص 19
[20]) تفسير ابن كثير ج5 ص 265
[21]) رواه ابن حبان ج1 ص 443 رقم 211 وصححه الألباني : ظلال الجنة ج2 ص 82 رقم 818
22) رواه ابن حبان في صحيحه ج5 ص 21 رقم 1731 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص161 رقم 1276
[23]) المستدرك على الصحيحين ج2 ص 409 رقم 3436

قوله (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) (88) بيانٍ بليغٍ يهزُّ أركان الكون، يقرعُ القرآن الكريم أسماعَ المشركين مستنكراً افتراءهم العظيم. إنّ هذه الفرية الشنعاء لم تكن إلا وليدةَ عقولٍ قاصرة، وتصوّراتٍ سقيمة أظلمت فيها معرفةُ الخالق جلَّ في علاه؛ إذ قاسوا الخالقَ العظيم على المخلوق الضعيف، فظنّوا بربهم ظنَّ السوء، وتوهّموا أنّه سبحانه بحاجةٍ إلى ولدٍ يعضده أو يورث ملكه.

أصل هذه الفرية أن الولد في سنن البشر إنما يُطلب للحاجة، أو لدفع الوحشة، أو لحفظ البقاء والنسل من الفناء؛ والله سبحانه هو» **الصَّمَد** «الغنيُّ بذاته عن كل ما سواه، الحيُّ القيوم الذي لا يعتريه نقصٌ ولا فناء.**فكمال الغنى المطلق لله تعالى** :وقد حسم القرآن هذه القضية بالبرهان العقلي القاطع فقال :﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾] الأنعام: 101]، فكيف يُنسب الولد لمن تنزّه عن الصاحبة، وهو خالقُ كل شيء ومالكه؟

فلم تنبت هذه الشبهة في عقولهم من فراغ، بل كانت ثمرةً لوساوس الشيطان واستحواذه عليهم؛ فحين أعرضوا عن ذكر الرحمن، قيّض الله لهم شياطين تلازمهم وتدفعهم نحو الكفر دفعاً، مصداقاً لقوله تعالى قبلها بآيات :﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾ (مريم: 83) ؛ أي تزعجهم وتستفزّهم نحو المعاصي والشرك إزعاجاً. فكان أعظم ما أوقعهم فيه قرناؤهم من الشياطين أن جرّؤوهم على التقول على الله بغير علم، ونسبة النقص والولد لمن له الكمال المطلق. وهو الأحد الصمد الذي ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص: 3-4)[24]

ولذلك يقرّر **شيخ الإسلام ابن تيمية** أن إثبات الولد لله يستلزم تشبيه الخالق بالمخلوق، وإثبات الحاجة والنقص للغني الحميد[25]، وهو عين الشرك والضلال الذي جاءت جميع الرسل لهدمه وإثبات الوحدانية المطلقة لله.

ويقول العلامة السعدي (فرحمته الواسعة اقتضت أن يخلق الخلق ويرزقهم، لا أن يتخذ منهم ولداً، فمن نسب له الولد فقد أساء الظن بربه وجهل كمال رحمته وغناه).

قوله (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) (89) (وإلادّ في كلام العرب أعظم الدواهي)[26]، ونظيره قوله (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)، فقد وصف الله مقولتهم بأنها أمرٌ منكرٌ فظيع، بلغ من شناعته أن كادت السماوات والأرض والجبال أن تتصدع وتنهار غضباً لله وتعظيماً لجلاله، كما بيّنت الآيات التي تليها.

ذلك أن نسبة الولد لله من أعظم الفرى التي لا تليق بجلال الربوبية؛ لأن الولد يقتضي المجانسة والحاجة، والله متعالٍ عن ذلك.

قوله (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) (90-91) قال الشنقيطي (إذا كانت الجبال تنهد غيرةً على التوحيد والإيمان، فكيف **بقلب المؤمن** الذي يخاف الله ويرجو رحمته، فإنه أولى وأحرى)[27] .

---

[24]) تفسير ابن كثير ج5 ص 266

[25]) منهاج السنة النبوية ج2 ص 307 ، مجموع الفتاوى ج5 ص 107 ، الاستقامة ج1 ص 180

26) قال ابن عباس : منكراً ، وقال قتادة ومجاهد : عظيماً ، وقال الضحاك : فظيعاً وقال مقاتل : معناه لقد قلتم قولاً عظيماً ، انظر : النيسابوري الثعلبي الكشف والبيان ج6 ص 232

ويُبيّن الحديث القدسي فداحة هذا الادعاء؛ فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قَالَ اللَّهُ **كَذَّبَنِي** ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ **وَشَتَمَنِي** وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ وَأَمَّا **شَتْمُهُ** إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ)[28] ، وفي رواية (وَأَمَّا **شَتْمُهُ** إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) [29].

ورغم غضب الكون بأسره من هذا الافتراء، يتجلّى حِلم الله وصبره على عباده؛ إذ يقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**)[30]، أي إنه أشد حِلماً وتجاوزاً عن معاقبتهم كما أوضح ابن الأثير[31]. ولهذا اقترن التحذير في الآية باسمه" **الرحمن**"؛ ليفتح لهم باب التوبة والرجوع مهما عظم ذنبهم.

وقد لخّص ابن القيم هذا المعنى البديع مبيّناً أن السماء تستأذن ربها لترجم العاصي، والأرض لتخسف به، والبحر ليغرقه، والملائكة لتعاجله بالعقوبة، فيقول الرب جل جلاله: (دعوا عبدي فأنا أعلم به إذ أنشأته من الأرض إن كان عبدكم فشأنكم به وإن كان عبدي فمني وإلي عبدى وعزتي وجلالي إن أتاني ليلا قبلته وإن أتاني نهارا قبلته وإن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا وإن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وإن مشى إلي هرولت إليه وإن استغفرني غفرت له وإن استقالني أقلته وإن تاب إلي تبت عليه من أعظم مني جودا وكرما وأنا الجواد الكريم)[32].

قوله (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) (92) يعني يستحيل أن يكون له ولد ، إذ إنّ الولد يستلزم الحاجة والمجانسة والحدوث، وهو محالٌ في حقّ الصمد القيّوم الذي تفرد بالمثل الأعلى.

لأن ذلك يدل على الاحتياج ، والله تعالى ليس بحاجة للولد ، فلا يفتقر إلى من يؤنسه ويسانده ، ولا يتطلع إلى من يرثه ، وذلك لأنه (متفرد بالمثل الأعلى ، وذلك يقتضي نزاهة الرب عن النقائص والنظراء)[33]

لاسيما وأن الولد يشغل أبيه به ، حتى أن النبي ﷺ لما انشغل بالحسن والحسين لام نفسه ، ففي الحديث (كان رسول الله ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران بعثران و يقومان فنزل فأخذهما فوضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة رأيت هذين فلم أصبر ثم أخذ في خطبته)[34] ، وفي رواية (رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ كَلَامِي فَحَمَلْتُهُمَا)[35] ، فكيف بالإله سبحانه ينشغل بمثل ذلك

فالولد علامة ضعف أبيه ، وحاشا لله أن ينسب إليه مثل ذلك ، فالاستحالة في هذا الشأن في حق الله تعالى أكبر رد على من زعم أن المسيح ابن الله ، قال تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) .

---

[27]) التوحيد في الحج ج1 ص 18
[28]) رواه البخاري ج15 ص 365 رقم 4592
[29]) رواه البخاري ج15 ص 367 رقم 4593
30) رواه مسلم ج13 ص 403
31) النهاية في غريب الأثر ج3 ص 9
32) مدارج السالكين ج1 ص 432
33) د / عيسى بن عبد الله السّعدي : حقيقة المثل الأعلى ج1 ص 19 أستاذ مساعد بجامعة أمّ القرى -كليّة التربية بالطائف / قسم الدّراسات الإسلاميّة
34) رواه ابن خزيمة في صحيحه ج3 ص 151 رقم 1801 – والحاكم في المستدرك ج4 ص 210 رقم 7396
35) رواه النسائي ج5 ص 272 رقم 1396 ، وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج4 ص 57 رقم 1413

في قوله تعالى (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) (مريم: 92) يُقرّر الحقُّ سبحانه استحالةَ أن يكون له جلّ في علاه ولدٌ؛ إذ إنّ الولادة فرعٌ عن الحاجة والافتقار، والله تعالى هو الغنيّ الحميد، الصمد الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، ولا يفتقر إلى أحد. فهو سبحانه مُنزّهٌ عن أن يستأنس بولدٍ من وحشة، أو يستعين به على نائبة، أو يترقّب منه وريثاً يخلفه في ملكه؛ لبقائه الدائم وقيّوميّته المطلقة، ولتفرّده بالمثل الأعلى الذي يقتضي كمالَ ذاته وصفاته، ونزاهتَه التامة عن كلّ نقصٍ أو شبيهٍ أو نظير.

يقول الإمام ابن كثير "الصمد": (هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها ومسائلها، وهو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه... فلا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، ولا يلد ولا يولد؛ لأنه لا شيء إلا سيموت، ولا شيء إلا سيورث، والله تعالى لا يموت ولا يورث[36]".

يقول الإمام ابن القيم في هداية الحيارى (الله الصمد فصفة الصمدية تعني أنه يستحيل عليه ما يناقض صمديته)[37] فإن الولد بضعة من والده وجزء منه، والرب تعالى أحدٌ صمدٌ لا يتجزأ ولا يتبعض، ولا يقبل الانقسام بوجه، فكيف يكون له ولد؟! والولد فرعٌ عن أبيه متأخرٌ عنه، والله هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون معه ولدٌ يشاركه في الألوهية؟..!

ومما يزيد هذا المعنى وضوحاً في فِطر العقول: أن الولد في طبيعة البشر مشغلةٌ للوالد ومجلبةٌ للفتنة التي تَصرِف القلب عن كمال التفرغ؛ فهذا سيد الخلق ﷺ ، وهو أكمل البشر عقلاً وقلباً، حين رأى سبطيه الحسن والحسين رضي الله عنهما يمشيان ويتعثران وهو على منبره، رقّ لهما قلبُه فقطع خطبته ونزل ليحملهما، ثم اعتذر مبيناً أثر فطرة الأبوة، فعن بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يعثران و يقومان فنزل فأخذهما فوضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة رأيت هذين فلم أصبر ثم أخذ في خطبته)[38] ، وفي رواية (رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ كَلَامِي فَحَمَلْتُهُمَا)[39]. فإذا كان هذا شأن الولد مع أكمل البشر؛ فكيف يُتصوّر في حق الإله العظيم الذي لا يَشغله شأنٌ عن شأن، ولا يعتريه ضعفٌ ولا تأثّر؟!

إنّ اتخاذ الولد أمارةُ نقصٍ وحاجة، وعلامةُ مجانسةٍ وحدوث؛ وحاشا للربّ الجليل أن يُنسب إليه شيءٌ من ذلك. قال تعالى :(أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الأنعام: 101). يقول الإمام ابن جرير الطبري (وما يصلح للرحمن أن يتخذ ولداً، ولا ينبغي له؛ لأن الولد إنما يكون عن اثنين، ولا صاحبة له، ولأن الولد إنما يتخذه مَن يحتاج إليه إما ليعينه، وإما ليرثه، والله تعالى غنيٌّ عن ذلك كله".

فلله صفات الكمال والجلال ولا يجوز أن ينسب إليه النقص ، يقول الله تعالى :(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (النحل: 60) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية "المثل الأعلى هو

---

[36]) تفسير ابن كثير تفسير سورة الإخلاص ج8 ص 529

[37]) هداية الحيارى ص 159

38) رواه ابن خزيمة في صحيحه ج3 ص 151 رقم 1801 – والحاكم في المستدرك ج4 ص 210 رقم 7396

39) رواه النسائي ج5 ص 272 رقم 1396 ، وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج4 ص 57 رقم 1413

الوصف الأعلى، وهو أن يُوصف الله بصفات الكمال التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ويُنزّه عن كل نقص وعيب ومثل... فكل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص تنزّه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزيه عنه[40]".

ولهذا كانت استحالة الولد في حق الله تعالى أبلغَ حُجّةٍ وأقوى برهانٍ يُدحض به بهتانُ مَن زعم أن المسيح ابنُ الله، أو أن الملائكة بناتُ الله؛ فإنهم جميعاً عبيدٌ مربوبون، خاضعون لعظمته، متذلّلون لربوبيته، كما حسم القرآن ذلك بقوله(**لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**) (النساء: 172)

قوله (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (93) جاءت هذه الآية الكريمة عقيب آيات التنزيه والتعظيم؛ لتقطع دابر الأوهام، وتُثبت أن كل من في الوجود ـــ من الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين كالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وسائر الخلائق ـــ مربوبون مقهورون، خاضعون لسلطان الله الواحد القهار، آتون إليه يوم القيامة أذلاء خاضعين تحت وطأة الملك والقهر.

لقد قرر أئمة السلف وأهل السنة أن وصف المخلوق بالعبودية التامة ينفي عنه وصف البنوة بالضرورة العقلية والشرعية؛ إذ الابن من جنس أبيه ومساوٍ له في الحقيقة، فلا يقع عليه ملك الأب ولا رقّه، بينما الخلق كلهم مملوكون لله، مدبَّرون بأمره، نواصيهم بيده.

قال الطحاوي (لو كان لله تعالى ولد لم يكن له عبدًا ، لأن الولد لا يكون عبدا لأبيه ، ولا يقع ملكه عليه ، وإذا كان الولد لا يكون عبدا لأبيه ، انتفى عن الله أن يكون له ولد ، إذ كان كل من في السماوات والأرض له عبد) [41]

ونظير ذلك قوله تعالى (وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون)[19-20 الأنبياء].

ولا غبار على تسمية الكافر بـ (العبد) في قوله (إلا آتى الرحمن عبدا) فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم[42]، فالعبودية لله تعالى حق على العباد سواء أنكروها أم أقروا بها ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ("العبودية العامة" هي عبودية الربوبية)[43]، وهي شاملة لجميع المخلوقات، فكلهم عبيد الله مربوبون مقهورون مدبَّرون، لا يخرج منهم أحد عن مشيئته وقدرته... ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

وفي ذلك أبلغ رد على من زعموا أنهم أبناء الله ، كما في قوله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (المائدة/18) .

---

[40]) الرسالة التدمرية ج1 ص 22 ، مجموع الفتاوى ج3 ص 30

41) مشكل الآثار ج12 ص 67 رقم 4704

[42]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 91

[43]) اقتضاء الصراط ج1 ص 461 ، مجموع الفتاوى ج5 ص 105

قوله (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) (94) أي (أنفاسهم وأيامهم فلا يخفى عليه شيء)[44]، فلا مهرب منه يوم القيامة ، ولا مفر .

ففي الحديث عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ (يَا عِبَادِي **إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا** فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)[45].

فقوله (أُحْصِيهَا) الإحصاء بمعنى العدّ التفصيلي والحفظ؛ والإحصاء يشمل معرفة التفاصيل وكتابة ذلك، ويشمل أيضا الحفظ وعدم التضييع، فـ(إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ، أُحْصِيهَا) يعني تكتب عليكم بتفاصيلها، وأعرّفكم إياها بتفاصيلها، وأحفظها لكم فلا تضيع)[46].

قوله (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) (95)(هذا رد على أولئك الذين يدعون أنهم إن بعثوا يكون لهم المال والولد والشفيع والنصير ، فأخبر تعالى أنه ما من أحد إلا ويأتيه يوم القيامة فرداً ليس معه شافع ولا ناصر ، ولا مال ولا سلطان)[47] ، فهذه الآية تكرار للمعنى المذكور في قوله (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) (80) .

وإنما ينجو العبد في ذلك الموقف الفردي، ويأمن تبعة الحساب، متى ما حقق أصل التوحيد بالبراءة التامة من الشرك وأهله، ومجانبة الظالمين وإنكار منكرهم؛ إذ إن الرضا بالباطل أو السكوت عنه مع القدرة يورث صاحبه التبعة. ويقرر أهل السنة والجماعة أن التوحيد لا يستقيم إلا بالجمع بين إثبات العبادة لله وحده والكفر بكل ما يُعبد من دونه، كما قال الإمام ابن القيم (حقيقة التوحيد: كما هي طريقة القرآن أن يقرن النفي بالإثبات فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته)[48] يعني أن تكون البراءة من الشرك وأهله شعار العبد ، فلا يركن إليهم بقلبه، ولا يمالئهم بلسانه، ولا يقرّهم على باطلهم ، مثلما يقر بتوحيد الله بأسمائه وصفاته وأفعاله دون شريك .

وتتجلى هذه الحقيقة بأبلغ صورها في موقف نبي الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام؛ فمع علوّ مكانته واصطفائه، فإنه يأتي ربه يوم القيامة فردًا، فيُسأل على رؤوس الأشهاد تبكيتًا لمن غلا فيه وعبده من دون الله، فيتبرأ من شركهم، وتنقلب تلك المعبودات الباطلة خصمًا لعابديها، مصداقًا لقوله تعالى :﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مريم: 82).

وفي ذلك المقام العظيم، يصدع نبي الله عيسى عليه السلام بالتوحيد الخالص، منزهًا ربه عما افتراه الضالون، في حوار قرآني يهز الوجدان :﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: 116-117).

---

[44]) الكشف والبيان للنيسابوري ج6 ص 232
[45] رواه مسلم ج12 ص 455 رقم 4674
46) للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ : شرح الأربعون النووية : قسم الحديث ج25 ص 18
[47]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 428
[48]) بدائع الفوائد ج1 ص 141

قال الإمام الطبري في بيان هذا الموقف "كلهم آتيه يوم القيامة وحيدا لا ناصر له من الله، ولا دافع عنه[49]" ، ففي هذا أعظم الزجر للخلق عن الغلو في الأنبياء والصالحين؛ إذ كان النبي المعصوم يُسأل ليتبرأ ممن عبده، فكيف بمن دونهم؟.

فإذا كان هذا هو موقف نبيٍّ كريمٍ وعبدٍ صالحٍ لم يأمر إلا بالتوحيد، فحريٌّ بالمؤمن العاقل أن يشتد حذره، وأن يطهر قلبه ولسانه بالبراءة الصادقة من كل عبادة تُصرف لغير الله، ومن كل قولٍ أو عملٍ يضادّ التوحيد؛ كي يلقى ربه يوم القيامة فردًا سليم القلب، نقيّ الصحيفة، مستحقًّا لرحمته ورضوانه، كما صحّ عن النبي أنه قال :(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) متفق عليه[50]

[49]) تفسير الطبري ج18 ص 261
[50]) رواه البخاري ج20 ص 205 رقم 6058